شخصيات من أدب المقاومة

حمزة والحب والثورة

بقلم سامي خشبة

ليس من السهل أن نعثر على بطل في عمل روائي في أدبنا الحديث كله، استطاع أن يتكلم عن نفسه — شخصيته وأفكاره ومواقفه — بمثل هذه الوفرة والطلاقة والوضوح التي تبدو في حديث «حمزة» بطل «قصة حب» ليوسف ادريس عن نفسه، بينما هو يسعى الى تأكيد ذوبان فرديته: مطامحه الشخصية وأحلامه الخاصة» في مطالب الشعب العامة وأحلام أمته. ونحن قد نسرع الى الحكم على حمزة بأنه شخص نرجسي مصاب بعقدة الاستعراض، ولكن خطأ هذا الحكم لن يقل عن خطأ الحكم عليه بأنه شخص مغرور متعال على الاخرين، يرى ان واجب الاخرين الوحيد هو أن يستمروا في الانصات اليه دون مناقشة، بينما يكون هو صاحب الحق الوحيد في تلقين التعاليم من مركز الفاهم لكل شيء المحيط بكل شيء علما.

اننا ازاء حمزة — طالما قد أصر على أن يتحدث عن نفسه ليحدد معالم شخصيته بهذه الدقة — لا يسعنا الا أن ننظر اليه من خلال نفس الزاوية التي نظر من خلالها الى نفسه. وليس هذا استسلاما من جانبنا لرؤية المؤلف، كما انه ليس خضوعا «لتعاليم!» حمزة، وانما هو بحث حقيقي عن معناه، باعتباره انسانا وثائرا، من خلال ذلك التقابل — لا التناقض ولا التطابق — الذي لم يكن هناك مفر من وقوعه بين كلمات حمزة وبين مواقفه. فان حمزة الذي لم يشغل نفسه بالبحث عن «الحقيقة» — على المستوى الفلسفي المجرد ولا على المستوى الشخصي — كان مطالبا على الدوام بأن يبين حقيقته. انه لم يشغل نفسه بالبحث عن حقيقة مطلقة ما دام يعرف ان النقص لا يكمن في عالم المطلقات، وانما يعتور النقص معالم الواقع المادي المحدد بظروفه وملابساته. كما أن حمزة الذي كان يعرف ان هذا النقص الواقعي لم يكن قدرا لا يمكن التخلص منه — بدليل ان محور حياته كان هو النضال ضد هذا النقص — فانه كان يعرف أيضا ان التخلص من هذا النقص لن يكون وصولا الى نوع من «الكمال»، وانما سيكون نضالا دائبا ضد النقائص القائمة وضد كل ما يجد من نقائص لم تتكشف، أو لم تحدث بعد. كذلك فان حمزة، الذي يطالعنا منذ بداية الرواية مزودا بكل أدوات كفاحه، الافكار في دماغه ورشاش البرنا بين يديه، كما لو كان «بطلا جاهزا» مستعدا للقيام بالدور الذي لا ريب أعده له المؤلف من قبل — أقول أن حمزة، هذا «البطل الجاهز» لم يترفع عن أن يعدل «أسلوبه» في التفكير — أو على الاقل هذا هو ما يقرره بنفسه — حينما نزع عن نفسه آخر آثار فرديته بوقوعه في الحب وتزايد امتزاجه مع الشعب — بالصورة التي تبدى بها الشعب أمام ناظري حمزة وناظري خالقه: يوسف ادريس.

ولكن حمزة، بكل ما كان مزودا به من أفكار وأسلحة، ورغم حبه الجديد، لم يكن يملك أن يغير «منهجه» الفكري، أي ان تتحول أفكاره وأسلحته وحبه حقا الى روابط حقيقية تشده، لا الى ملامح شعبه الخارجية التي لا شك في طيبتها، وانما الى روح هذا الشعب حيث تراكمت خبرته وحكمته لا تكاد تصل اليهما يدان. هكذا كان حمزة ثوريا اصيلا باصراره على القتال، بأفكاره وسلاحه، عقله ويده، من أجل تغيير الواقع بما يحقق مصلحة شعبه وحريته. ولكنه — ربما رغما عنه وعن منهجه العلمي — ظل ثوريا ناقصا حينما لم يستطع ان يمنح افكاره ودوافعه واسلوبه نفس اصالة اهدافه، وان يعمق ارتباطها بالواقع الذي يصارعه.

لقد وعى حمزة حقيقة ان الواقع متغير ولا يمكنه ان يركن الى الجمود، وهو يعرف ان تغير الواقع رهن بعمل الناس المتكاثر المتراكم ابدا، ورهن بوعي الناس بمصالحهم وقوتهم وقدرتهم على التجمع. وهو يعرف أن وعيه النظري بهذا القانون العلمي — قانون التغير الاجتماعي المطلق المرتبط بوعي الناس وعملهم — يعرف ان هذا الوعي لا يمكن ان يكتمل ويتحقق ما لم يرتبط بواقع هؤلاء الناس الذي عاشوه والذي يعيشونه، وبهؤلاء الناس انفسهم وبصورة مباشرة وعضوية. ولكنه في الحقيقة ظل مكتفيا بالسطح الظاهر من هذا الواقع الانساني، على المستويين الاجتماعي والفردي. ان عمق المجتمع — وعمق افراده ايضا — انما يكمنان في تاريخهما. ولا بد من الغوص الى هذا العمق حتى يمكن اكتشاف الجزء الاكبر من الحقيقة، حقيقة التكوين الفكري والنفسي لهؤلاء الناس الذين سعى حمزة الى ان يعلمهم وان يتعلم منهم.

حقا لقد تحدث حمزة حديثا رائعا عن حادثة تاريخية بعينها، عن مظاهرة ٦ مارس ١٩٤٦ الدموية في الاسكندرية، ولكنه لم يتحدث سوى عن المعنى «الشعري» الذي لا شك في واقعيته لهذه الحادثة، تحدث عن قدرة شعبنا على القتال وخوض المعارك، ولكنه ابدا لم يتحدث عن المعنى التاريخي المحدد لتلك الحادثة او للحوادث المشابهة، وهو ان قسما معينا من الشعب، القسم الذي يسمونه «الغوغاء» قد اكتشف ان العنف هو الطريق الوحيد للخلاص من المحتل. وقد اكتشف حمزة شيئا قريبا من هذا المعنى، ولكنه حينما مضى يستعيد ذكرى ذلك اليوم الدامي، كان مشغولا باقناع حبيبته بان الشعب قادر على القتال، حينما اصطدم بفكرتها المستعارة من ثقافتها الغربية التقليدية عن عجز الشعب المصري عن القتال وعن طبيعته المسالمة. ولكن حمزة ما كان ليهتم باثبات رأيه في هذه القضية — او لما كانت تشغله هذه القضية حتى يصبح من اللازم عليه ان يكون له رأي فيها على الاطلاق — لو لم يكن قد احترف اللجوء الى شقة فاخرة مثل شقة بدير المحامي الثري، ولو لم يكن قد حبس نفسه ونضاله داخل جدران المدينة التي تزيف الكثير من اصالة الشعب نفسه وتمنحه — بمدارسها واجهزة اعلامها المزودة بالكثير من الثقافات المستعارة المعادية للشعب — فكرة مغلوطة عن نفسه وعن قدراته. ما كان حمزة ليشغل نفسه باثبات قضية قدرة الشعب المصري على القتال، لو انه كان يتحدث الى الشعب المصري نفسه في المكان الذي تعجز فيه المدينة بثقافاتها المستعارة من العدو الذي ترغب في الخلاص منه، تعجز عن تزييف فكرة الشعب عن نفسه واحساسه بذاته، لو أن حمزة كان يتحدث الى الفلاحين مثلا، او الى هؤلاء الشبان الذين احرقوا بملابسهم الممزقة والمبللة بالبترول «كشك» الجنود الانجليز في مظاهرة ٦ مارس في الاسكندرية، دون ان يبحثوا عما اذا كانت لديهم القدرة على القتال او يعجزون عنه. ولقد اكتفى حمزة بأن يكتشف بساطة المعلم «اسماعيل ابو دومة» وصدقه وكرمه وقدرته غير المحدودة على العمل والعطاء والحب، وكان هذا الاكتشاف من جانب حمزة رائعا في انسانيته، وان ظل غارقا في السذاجة الى حد بعيد. لقد بدا الشعب من خلال تجارب حمزة وذكرياته، وكأنه جموع من الكرماء

المبسوطي الايدي ، الشجعان الاقوياء المردة ، وكأن عصورا من الاضطهاد والافقار والتجهيل والارهاب الوحشي لم تترك على روح هـذا الشعب وجسمه وعقله بصماتها المشوهة الكريهة ـ رغم ذكريات حمزة عن عزبة عمال الدريسة واحوالهم المتدهورة التي يصفها حمزة في ذكرياته ايضا بطريقة شاعرية ـ الامر الذي يجعل تفوق قاهري هذا الشعبوسيطرتهم عليه شيئا غير مفهوم ولا تبرير له .. حتى من وجهة نظـر حمـزة نفســه .

لماذا استطاع المستعمر ان يقهر الشعب اذا كان الشعب بمثل هذه البطولة والشهامة والكرم ؟ الأنه كان يفتقر الى التنظيم فقط ؟ أم لان اكثر فئات الشعب قدرة على التجمع ـ وبالتالي على خوض نـوع من القتال المنظم وهم العمال والافندية ـ كانت قد ارتبطت مصالحهم بالمدينة التي فضل حمزة ان يهرب الى احد شققها الفاخرة ، حتـى اذا طردته المدينة ـ وبدير هو مندوبها ـ فضل ان يلجأ الـى مقابر المدينة . ولان تلك الفئة نفسها كانت قد تسربت اليها امثال تلـك التصورات عن عجز الشعب المصري عن القتال بطبيعته المسالمة ، والتي شغل حمزة نفسه بدحضها ، بدلا من اللجوء مباشرة الى من ابـدوا الاستعداد الفعلي للقتال من اجل تنظيمهم وخوض المعركة من قلـب صفوفهم ؟ .

ان ما يلفت نظر حمزة في تاريخ الشعب هو المواقف والافعال . لقد استوقفه في حادثة ٦ مارس فدائية الصبية والشبان الفقراء ـ الغوغاء ـ واندفاعهم الشيطاني لمواجهة الموت وبهدف ابادة العدو .. ولكنه ايضا لم يغفل عن انسحاب لابسي الجلابيب النظيفة والبـدل الانيقة من الميدان ، الذي اصبح ميدانا حقيقيا للقتال والموت،وتحولهم الى مجرد متفرجين . لقد اكتشف حمزة في ذلك اليوم معدن الشعب الحقيقي كما اكتشف انقسامه ، وقرر الانحياز الى جانب « العنف » الذي رأى الغوغاء يمارسونه ، كما رأى الانيقين يتجنبونه وان كـانوا يهللون له ويشغفون بالتفرج عليه . ثم دخل في مناقشة مع استـاذ اكاديمي سفسطائي متأنق ، وقال حمزة كلاما لم يعد يذكر منه سـوى نهاية حديثه : « لن يخرج المحتل الا بالقوة وبالقوة فقـط سيتحـرر الشعب » ، ولكنه لم يعد يذكر ان القوة انما استخدمها قسم واحـد فقط من هذا الشعب » . لقد نسي ذلك الانقسام الغريب في صفوف الشعب امام استخدام القوة في ميدان ٦ مارس المفزع . لقد اكتشف حمزة من خلال موقف محدد قيمة « العنف » ، ولكنه لا يبدو فـي الرواية حاملا لمسؤولية الثورة بمفهومها الاصيل . فاذا كانت الثـورة ضد المحتل لا يمكن ان تنجح الا بالعنف فان العنف لا يمكن ان يستخدمه دون تردد الا اولئك الذين يواجهونه في حياتهم بالفعل ، او اولئـك الذين يكتشفون قيمته بالوعي الثوري مثلما فعل حمزة .

ومع هذا ، فلا بد من « مد الخطوط الى نهاياتها » كما يقول حمزة نفسه . لقد رأى حمزة في يوم ٦ مارس ، ابناء الشعب في « جموع » كبيرة وهم يمارسون العنف الثوري ، يستخدمون القوة الهوجاء في مواجهة قوة المستعمرين الهوجاء . وكانت قوة الشعب في ذلك اليوم ـ كما كانت دوما قبل ذلك ـ غير منظمة . وعرف حمزة كما قال بعـد ذلك ان الشعب « محتاج لي ومحتاج لغيري علشان ننظمه وندخـل بيه معركته الفاصلة » . ورغم هذا فاننا لم تر حمزة وهو ينظم الشعب. فبالصورة التي رأيناها لا يكون مفهوم تنظيم الشعب عند حمزة سوى اختيار اي مجموعة من الافراد ، يبدون قدرا من الطيبة وحدا ادنى من تحمل المسؤولية ـ واحيانا لا يبدون حتى هذا الحد الادنى كما رأينا في سعد الذي كان قد اسرع بعد حريق ٢٦ يناير الى التخلي عـن النضال والانحماج في حياة منحلة كريهة ـ لكي يقودهم حمزة من اجل اطلاق الرصاص على بعض جنود المحتل ، او تفجير قطعة من الديناميت او قطعتين ، حتى يتم القبض عليهم او يقتلوا . بهذا الشكل لا يكون انتصار الكفاح المسلح اكثر من امنية شريفة تطوف بصدر حمزة وزملائه، اما سلوكهم فلم يكن سوى مغامرة لا تؤدي الى نتيجة . ان رؤية حمزة التي تكشفت في ميدان ٦ مارس الدموي لم تكن تؤدي الى مثل هـذا السلوك وهذا التصور عن تنظيم الشعب لخوض الكفاح المسلح وممارسة العنف ضد المحتل . ان تنظيم الشعب لا يتم الا من خلال وجـود الثوريين المسلحين بالوعي العلمي وبروح القتال حيثما توجد تجمعات الشعب الكبيرة ـ التي يمارس المحتل ضدها اكبر قدر من القهـر والعنف ـ من اجل توعية هذه الجموع بمصالحها وتنظيم قدرتهـا الموجودة فعلا على القتال ، تنظيم عنفها هي الخاص ، من اجل تحويل كل غضب الى سخط ، وكل سخط الى تمرد ، وكل تمرد الى انتفاضة، وكل انتفاضة الى ثورة . الشعب المقهور الذي تم افقاره وتجهيلـه غاضب ابدا متفجر بالرغبة في العنف على الدوام . وعلى الثوري ان يزود هذا الغضب بالوعي ، وتحويل الرغبة في العنف التي قد تنفثىء في عراك شخص مع احد الجيران او الزملاء ـ كما يقول فرانز فانون ـ الى روح للقتال لا تستقر الا بعد الانتصار النهائي علـى العدو المحتل ، ليس في ميدان الحرب فقط ، وانما في ميدان الاقتصاد والفكر والاخلاق ايضا . ولا يمكن لهذه المهمة ان يحققها الثوري ما لم يكن قد مزج وعيه النظري بقوانين التطور والصراع الاجتماعيـة وبقوانين العمليات العقلية والنفسية لدى الافراد ، وبقوانين الاقتصاد السياسي والتقدم التاريخي ، اقول ان الثوري لا يمكن ان ينجز تلك المهمة ما لم يمزج وعيه النظري بكل تلك القوانين العلمية مع « خبرة » شعبه المتراكمة عبر العصور ، خبرته في القتال والمقاومة لا مـن اجـل الحرية السياسية وحدها ، وانما من اجل التحرر من الخرافة والجهل والتواكل والسلبية والفهلوة والسذاجة والفردية والجشع .. وكل ما لم يحسن حمزة ان يكتشفه في الناس . لقد اكتسب الناس فـي تاريخهم ومن خلاله لغة وطريقة معينة في التفكير والتعامل ، اكتفـى حمزة برؤية الجانب « الطيب » منها فحسب ، كما اكتسبوا خبـرات معينة في التجمع والتنظيم والاستفادة من ظروفهـم الجغـرافية والاجتماعية الى اقصى حد ، ولم يحاول حمزة الاستفادة من هـذه الخبرات .. ولهذا فقد كانت معرفته بشعبه ناقصة الى حد كبيـر ، ولهذا لم يكن ليكتب له ـ في هذه الحالة ـ النجاح في قيادة معركة هذا الشعب .

ورغم هذا فان حمزة الثوري ـ سواء باصالته ام بجوانب القصور فيه ـ لم يكن ثوريا عاديا . ذلك انه كان قد اخذ على عاتقه مهمة تحقيق ثورة غير عادية . انه يعرفان المسألة ليست مسألة الانجليز وخدمهم، وانما هي مسألة الشعب ومستقبله في المائة سنة القبلة .. « لحد ما العيشة تبقى لوكس » . وهو يستمع الى « مارش العبيد » منموسيقى تشايكوفسكي ، فتموج امام عينيه الاشياء ، وتتراقص الظلمة ،وتخفق الحجرة بانات كالاشباح ، ولكنه يستمع ايضا الى الموال الشعبي مـن زميله العامل سيد ابراهيم ، فيحمل اليه روعة الليل وشبيع الفجـر فيه ، وينادي العين فيشعر بالنوم وقد تسلل منها « ويذوب البـرد ويهاجر الظلام .. ويرى بالعين النور ويملأها دفء ومرح . » ، ها هو بين العالمين ، عالم معركته القائمة بالفعل ـ في الجزء الذي حـدده لنفسه منها ، وعالم المستقبل الذي يحلم به لشعبه ويقاتل الآن مـن اجل خلق الفرصة لايجاده ، عالم الموسيقى العقلية الخالصة المحملة بثمرات وجدان فنان عبقري انفعل بآلام البشرية ، ولكن البشريـة لا تستطيع كلها ان تستوعب فنه العظيم ، وعالم ذلك الموال الذي ابدعه قوم حمزة انفسهم من خلال عذاباتهم وآلامهم الفادحة ، وآمالهم الهائلة بالخلاص والتحرر . عرف حمزة انه لكي لا يتمزق بين العالمين ، عالم الآن وعالم المستقبل ، عالم الواقع وعالم الامل ، عالم الابداع من خـلال التمزق والجوع وعالم تذوق الجمال من خلال الانفعال والتأمل ، عرف حمزة انه لكي لا يصبح جسرا مشدودا بين الضفتين انهار من وسطـه فاصبح تأكيدا بارزا على انفصالهما بدلا من آن يكون الرابط الوثيـق بينهما ، ولكي تتوازن داخله مهام الحاضر واحلام المستقبل ، اصالـة الواقع وانسانية العذاب والمتعة ، عرف حمزة انه لا بد لكل هذا ان يكون هو نفسه واضحا للآخرين ، وان لم يعرف انه لا بد ان يكـون فهمه لحقيقة هذا الانفصال الذي لا بد من رأب صدعه واضحا شديد

الوضوح للآخرين كذلك ، لا بد لهذا الانفصال والسعي من اجل تحقيق الربط بين اطرافه أن يكون واضحا لسيد ابراهيم الذي غنى الموال لحمزة ولم يشعر معه بما احسه حمزة ، وواضحا لبدير وفوزية اللذين استمع معهما الى موسيقى تشايكوفسكي ولم يعانيا معه ما عاناه .

ولقد عرف حمزة أنه وهو الثوري العقائدي ، الذي ركبت شخصيته من خلال وعيه بنقائص واقعه وعيوبه وتناقضاته ، عرف كم هو مختلف مع هذا الواقع ومتناقض معه في كل شيء . أن الاشياء تكتسب عنده معنى ومضمونا وجوهراً جديداً ، فهو عملي ومؤمن بالعلم، وبالتغير المطلق وبقدرة الناس على أن يحدثوا التغيير وبأن يتغيروا هم أيضا ، وبأنه مهما اختلفت الدوافع فالمهم هو الهدف طالما ان الهدف هو الذي يطور الدافع ، وبأن الناس خلقوا ليحبوا ويسعدوا ، وبأنهم يحسون الحب مثلما يحسون الخوف والفرح والكراهية ، وبأن الحب الحقيقي علاقة مادية تقتضي زمنا وعشرة وتجربة مادية يمر بها الرجل والمرأة فتصهرهما في بوتقتها ، وبأن تجربة الحب لا تكتمل أبدا، ولا يمكن للحب أن يتجسد ويصبح حقاً ما لم يكن هناك ما يقابله عند الطرف الاخر ، ورغم هذا — رغم كل هذه المعرفة — فهو يعرف أيضا انه انسان عادي وليس بطلا ، وانه يعاني من نفس المشاكل الجنسية والنفسية التي يعانيها أمثاله من الشبان . اننا بهذه الصورة نواجه شخصية لا نكاد نتعرف فيها على مصر التي دأبت على الوجود حتى ثلاثينات قرننا هذا . لقد تم صبغ العقل المصري بصبغة الثقافة الغربية — بعد أن تم انقسام المجتمع الى طبقات كل مجتمع تسوده العلاقات الرأسمالية الحديثة — وبعد أن أصبح هناك من المصريين من يرون — وفقا لمصالحهم وطاقاتهم — ان المقاومة تطاول على أقدار الانكليز المتحضرين العظام العتاة ، كما أصبح من المصريين من يرون أن المقاومة المجدية هي في الارتفاع بمستوى أخلاقنا وتعلمنا للنظام ، ومن يرون ان المقاومة تكون بالمفاوضات والحصول على ما يمكن الحصول عليه ، ومن يرون أن المقاومة تكون بالمقاطعة الاقتصاديه وبالمظاهرات ، ومن يرونها بالاغتيالات الفردية أو الاعتصام بالدين ، ومن يرونها بالحرب الشاملة يشنها الشعب كله على جيش الاحتلال. وكان حمزة هو بطل مصر حينما عرفت أن العنف هو الطريق الوحيد الى الحرية فاستعادت بهذا جزء من أصالتها القديمة حينما بدأت تواجه الغرب الحديث في أواخر القرن الاسبق وأوائل القرن الماضي . ولكن حمزة لم يكن يستطيع أن يثير قضيته بنفس مصطلحات السيد عمر مكرم ، ولا بمصطلحات عبد الله النديم ، فهذان كان مصدرهما الفكري الاساسي هو الجانب المضيء من تراث شعبهما الثقافي . أما حمزة فقد جاءت مصطلحاته من الجانب المضيء من ثقافة غربيه ، الا انه لم يستطع أن يصوغ تلك المصطلحات بحيث تصبح ثقافته الثورية امتدادا للجانب الثوري من عقل أمته . حقا لقد اتصفت ثقافة حمزة بصفة العلم الذي لا يعرف التفرقة بين الاوطان . ولكن هذا العلم ، علم الثورة الذي هو علم تغيير المجتمع ، لا يتعامل مع مواد جامدة ، وانما هو يتعامل مع تكوينات البشر الاجتماعية ومع أرواحهم ونفوسهم كأفراد . لذلك كان على حمزة أن يشرح نفسه كثيرا ، أن يقول ما يعرفه كثيرا حتى يمكن للناس أن يدركوا كنه هذا المقاتل من أجل أشياء يتمنونها ويحبونها ، ولكنه الذي يتحدث بلغة بعيدة عن كل ما اعتادوا سماعه من كلمات . ولم يكن ثمة من سبيل أمام حمزة لكي يتحدث بلغة يفهمونها سوى أن يحاول معرفة لغتهم ومصدر تلك اللغة ، تراثهم الاجتماعي والثقافي والنضالي كله . لقد رأى حمزة انه مطالب على الدوام بتوضيح كل شيء ، أفكاره وتصرفاته ومواقفه وسلوكه وارتباطاته . وعرف انه يقدم نفسه باعتباره نموذجا لذلك الوعي الجديد وللانسان الجديد — تعبيرا عن أوضاع اجتماعية جديدة — ليكتشفهما الاخرون من خلاله ، وعرف ان عليه ألا يتركهم يرفضونه لمجرد نفورهم من خروجه على ما اعتادوا عليه ، وان عليه الا يتركهم ليقتدوا به على سبيل تقليده ، هذا النوع الاعمى من الاقتداء الذي لا يؤدي الى توليد المزيد من الثوار — وظيفة الثوري الاساسية ، وانما كان عليه أن « يغيرهم » ، وهو يساعدهم على التغير بكلماته المحملة بوعيه ، وتشجيعهم على اتخاذ مواقف جديدة . ولكن مثلما كان على حمزة أن يوضح نفسه للناس ، كان عليه أيضا أن يجعل الناس واضحين له بالدرجة نفسها . ولم يكن من الممكن أن يحصل حمزة على هذه الدرجة من الوضوح الا من خلال استقرائه لتاريخ هؤلاء الناس وما يحتويه هذا التاريخ من معرفة وخبرة وحكمة ونضال ، لا أن يتوقف عند طيبة قلوبهم ، أو مجرد اقناع الذين تم تزييفهم من بينهم بقدرة الشعب على القتال . كان لا بد لحمزة ، حتى يثمر وعيه الذي لا شك فيه بانسانية قومه ، أن يكف عن ترديد كلامه بمصطلحات لا يفهمها سوى أمثاله من قارئي الكتب ولابسي النظارات . كان عليه أن يخلع نظارته وهو يتكلم حتى يتبين وجه الناس الحقيقي ، من خلال ملامحهم واحساسه بها ، وليس من خلال ما استظهره ووعاه من كلمات عظيمة شديدة العلمية ، تماما مثلما اكتشف القيمة الحقيقية لوجود هؤلاء الناس ولزحامهم حينما سقطت النظارة فقادته غريزته الى الزحام الذي كان لا بد أن تبعده نظارته عنه .

ولكن حمزة لم يكن ثوريا فحسب ، وانما كان عاشقا كذلك . أما نحن فلا يسعنا الا أن نتساءل عن جدارة هذه العاطفة بالاحترام ، تماما كما تساءل حمزة في ليلة مواجهته المؤلمة والمعادية لنفسه بعد أن كاشف فوزية بحبه وبعد أن رفضت فوزية حبه ذلك الرفض الخشن الغليظ . أليس من المنطقي أن نتساءل عن جدارة هذه العاطفة بالاحترام ، وهي العاطفة التي كان من الممكن أن تشغل ذهن حمزة ووجدانه وارادته عن التفكير في قضيته والعمل من أجلها . ألم يكن من الممكن أن يتنامى ذلك الاحساس الفردي بالعزلة الذي يهيىء أسبابا معقولة للنكوص والتخلي عن المسؤولية ، ذلك الاحساس الذي جعله يضيف الى تعليماته لفوزية .. « يعني كأنني في جزيرة معك » ، وما نبع تلك الاضافة من أفكار تسربت من لاوعيه الجاري الى منطقة التفكير الواعي القريب من الارادة الفاعلة .. « في جزيرة معها .. هي والطبيعة واللامسؤوليات ، كم يبدو هذا رائعا .. وهل ستسير حياته كلها هكذا معارك وكفاحا وتربصا وحذرا.. كم تبدو الراحة والمتع الصغيرة التي لا يزاولها حلوة . كم يبدو بيت وزوجة وأولاد جميلا ؟ أحيانا يهفو الى قضاء يوم على شاطىء البحر في مصيف ، وأحيانا يود الذهاب الى الاوبرا .. أحيانا يريد أن يرى أوروبا » . كيف يمكن أن ينمو الحب جنبا الى جنب الخوف والتربص والرغبة في القتال ؟ كان حمزة يملك الكثير من التحفظات على فكرة الزواج والحب التي كان بدير يلح بها عليه ، كان مؤمنا بأنه ليست له حياة خاصة ، وانه قد وضع نفسه وحياته في خدمة الشعب ، وان مطامحه الخاصة هي بالضبط مطالب الشعب العامة ، وانه وان كان لا بد سيتزوج ، الا ان زواجه لا بد أن يخدم قضيته لا أن يكون على حسابها ، وانه وان كان لا بد سيكون له بيت ، ولكنه يجب أن يكون بيتا يهيىء له فرصة كبرى لخدمة الشعب . كذلك فقد استطاع حمزة أن يقنع نفسه « بحقه » في الحب ، وبضرورة أن يواجه فوزية بحبه من خلال تلك الفكرة النظرية التأملية المحضة التي تقول ، أو التي يقولها هو لنفسه ، بانه رجل « يؤمن بالعلم ويؤمن بالحب .. ويؤمن ان الناس وجدوا ليحيوا ويحبوا ويسعدوا فليس عيبا أن يحب فوزية اذن .. » .

هكذا منح حمزة لنفسه « حق » أن يحب وأن يحيا وأن يستشعر السعادة الفردية والخاصة ، من خلال عمليته العقلية التي كثيرا ما تجنح الى التحليل والتأمل و « تفصيص » المسائل كما قالت فوزية . ولكن حمزة — حتى بتلك النزعة التأملية — كان قد أزاح جانبا الكثير من العوائق الاجتماعية التي تقف بين الانسان والطبيعة . انه وهو المقاتل من أجل بني جلدته من كل ما يحرمهم من ممارسة الحياة التي تكفل لهم بشريتهم حقهم فيها ، وهو الذي

يكتشف من خلال المعركة واتصاله المستمر والمتجدد بأنواع مختلفة من البشر ، يكتشف الينابيع الحقيقية لوجدان الانسان ، البساطة والصدق والركون الى الفهم المباشر للاشياء وللعلاقات وللناس وللافكار ، والثقة في العمل وفي المستقبل ، والارتباط التلقائي ــ النفسي والعضوي ــ بين نصفي البشرية ــ الرجل والمراة ، الذكر والانثى ، هذا الارتباط الذي يتخذ صفة الوضع الطبيعي والعضوي الذي تريده الطبيعة نفسها ويفرضه قانون الحياة ، أقول ان حمزه هذا ما كان بوسعه ــ حتى وان استخدم كل ما يعرفه من الاقوال النظرية عن ضرورة الزواج الذي صفته كذا وكذا ، والحب الذي له كيت وكيت من الصفات ، أقول انه مهما استخدم من مثل تلك الاقوال، الا انه ما كان بوسعه أن يقف في وجه القانون الاسمى للطبيعة ، قانون امتزاج الذكر والانثى ، أو في وجه القانون الاكثر سموا للطبيعة الانسانية ، قانون بحث كل من الرجل والمراة احدهما عن الاخر ، عن شبيه لذاته ومكمل لها ومأمن لمخاوفها وتجسيد لرغباتها . وكانت فوزية بالنسبة لحمزة ــ كما كان هو بالنسبة لها ــ ذلك الشبيه والمكمل والمأمن والتجسيد . ان محاولة حمزة المستمرة من أجل ازاحة العقبات الاجتماعية من طريق الانسان ، والتخلص من الموانع التي فرضها التباين الطبقي أو التعليمي أو الجنسي بين البشر ــ أقول ان هذه المحاولة كانت تفرض عليه أن يزداد اقترابا من البساطة والصدق والفهم المباشر الواقعي للاشياء وللعلاقات وللناس وللافكار ، وكانت تفرض عليه أن يثق بالعمل وبالمستقبل ــ ان لم تكن هذه الثقة هي ما ولدت نزوعه الى ازاحة تلك العقبات والموانع . ان هذا النزوع ــ وبتعبير اخر هذه الثورية ــ هي ما تدفعه الى اكتساب المزيد من الثقة بالانسان والمزيد من فهمه .

الا ان حمزة ــ ذا النزعة التاملية التي لم تتغلب على قدرته على الفعل ــ كان يقف من الحب ، من العلاقة السوية بين الرجل والمرأة ــ موقفا مليئا بالتحليل والتأمل والاستنتاج والرغبة في المناقشة . ان تحفظاته لم تكن في الحقيقة سوى الموانع العقلية التي وضعها بين قلبه وجسده وبين التكامل الانساني كرجل وذكر . كان حمزة من هذه الزاوية بعيدا عن الطبيعة أو عن الوضع الطبيعي الذي تفرضه الحياة نفسها ، بعيدا عن أن يكون التجسيد الصالح للثورة التي يطمح الى القيام بها . ولكنه في اللحظة التي بلغت ثوريته فيها حد الاكتمال ، حين اصبح مهيئا لخوض القتال الفعلي ، وللانتصار أو للموت .. حينما أصبح مستعدا للقيام بالعمل المباشر ــ من وجهة نظره ــ من أجل تصحيح الوضع الاجتماعي واعادة سيادة القانون الطبيعي بين البشر .. في هذه اللحظة أصبح حمزة أيضا نهبا للحب . كذلك فان نزعة حمزة التأملية وقدرته على التحليل ورغبته في البحث عن الاصول واكتشاف العلل وتيارات الاندفاع ، لم تكن نزعته تلك ورغبته مجرد ثرثرة لغوية أو ضياعا لفظيا في غابات الكلمات المجردة ، وانما كانت تعبيرا أصيلا عن رغبة هذا المثقف العلمي الذي خرج من قلب فئة من المجتمع تتعامل مع العالم أساسا بأيديها ، وتنبع أفكارها مباشرة من خلال العمل ــ من خلال احتكاك الانسان بالطبيعة والآلة والمجتمع ــ أقول أن تحليلاته وتأملاته انما كانت تعبيرا عن رغبته الحقيقية في الوصول الى مبرر لفعل « الحب » ، فالحب عند حمزة ــ علاوة على كونه تلك العلاقة الشخصية والعمل الفردي بصورة كاملة ــ لم يكن مجرد عاطفة أو شعور وجداني يحمله بمفرده للمرأة التي يحبها ، وانما كان أساسا شعورا متبادلا بينه وبين هذه المرأة .انه لا يستطيع أن يسميه حبا قبل ان تبادله المرأة شعوره . ثم لا بد بعد ذلك من ممارسة هذا الحب ، لا بد من فعله . وهذا هو ما علمته فوزية اياه ، الحب لا يناقش ، الحب يؤخذ . ان المضمون العملي لتلك الكلمة لا يمكن أن يتحقق الا بين الاثنين معا ومشاركتهما سويا ، لا في عملية الحب وحدها ، وانما في عملية الحياة جميعا : في الكفاح كما في العمل ، في الهرب كما في الاعداد للثورة ، في التفكير كما في تطبيق الافكار ، في ممارسة الحب كما في تربية الاطفال ، ولذلك فان حمزة لم يكن مجرد نموذج جديد من الثوار ، وانما كان نوعا جديدا من العشاق أيضا ، وكان عشقه نوعا جديدا من الحب . ومثلما كان عليه ــ لكي تنجح ثورته ــ أن يعود بوعيه العلمي الجديد الى ينابيع التكوين النفسي والتراث النضالي الحقيقي الذي أبدعه شعبه وأدخره ، فقد كان عليه لكي ينجح حبه أن يعود رأسا وفي صدق كامل الى الاحتياجات العميقة والملحة لروح الانسان ولجسده ، العودة الى المصدر البسيط لسلوك الانسان ، احتياجه وتوافق رغبته مع رغبة الآخر . وبينما لم يستطع حمزة أن يعثر على بداية الطريق الصحيح لنجاح ثورته طوال الرواية الا حين سقطت نظارته وقادته قدماه وغريزته الى زحام الناس وكف المؤلف من الكتابة ، فقد كانت فوزية ــ الطرف الآخر في عملية الحب ــ قادرة على ان تقود خطى حمزة نحو البداية الصحيحة لممارسة حبهما في بداية علاقتهما المبكرة . وهكذا لم يكن حب حمزة هروبا من واجبه ، أو محاولة غير واعية للتشاغل عن مهمته الاولى،الوحيدة في الحياة ، مهمة الثورة واعادة الاوضاع السوية والطبيعية بين البشر ، وانما كان الحب استكمالا لانسانية حمزة ، وتصحيحا لوضعه هو الشخصي ، من أجل أن يكون أكثر صلاحية للثورة .

ان نزوع حمزة منذ البداية نحو تصحيح علاقة الانسان بالطبيعة، وازاحة العقبات الاجتماعية المشوهة بينهما ، وهو الذي نما في مكان بعيد الى حد كبير عن تعقيدات المدينة الاجتماعية ، أقول ان هذا النزوع ، انما يتبدى واضحا أكثر ما يكون الوضوح في تلك اللحظات التي تتداخل فيها أحاسيسه الاجتماعية مع ذلك « الجزء » اليسير من « الطبيعة » الذي تبقى عليه المدينة بشوارعها المسفلتة وأبنيتها الحجرية وضوضائها الصناعية المرهقة . فالشمس ليست هي ذلك النجم المطلق السابح في الفضاء ، مشرقا وضيئا أو يوشك أن يغيب ، والبرد ليس مجرد الاحساس بانعدام الدفء أو ارتعاشة الاوصال أو انخفاض درجة الحرارة ، الشمس والبرد وبقية عناصر الطبيعة التي تتمكن من النفاذ اليه من خلال شوارع المدينة تكتسب عند حمزة معنى انسانيا متعلقا بوضعه هو الانساني الفردي ، أو باحساسه أو فكره الجماعيين .. « وأتاح له الصباح أن يجعل عقله أكثر سيطرة على نفسه ، خاصة وان الصباح كان باردا برودة ترد الصواب ، برودة تجعل الانسان يرى الاشياء في وضوح ، بل وتفقد أشياء كثيرة ما يحيطها من بريق ويبدو على صورة اقرب ما تكون الى الواقع الذي مسح عنه الخيال » .. « كانت الدنيا لا تزال صبحا ، والشمس توزع صفرتها على الناس والاشياء بسخاء . وتألم حمزة لمنظر الناس وكأن قد مضت عليه شهور وهو في سرداب تحت الارض خرج منه يومها . كانت فيهم ملامح أهل القاهرة الذين يعرفهم ما في ذلك شك، ولكنهم كانوا غير الناس الذين رآهم لشهور طويلة قبل الحريق .. » . ها هنا نرى حمزة والطبيعة والناس ، معا . ان الانهيار الذي يعانيه حمزة أو يشاهده ، انهيار الامال والطموح والتوثب ، بعد اذ خيل اليه انه فقد حبه ، أو بعد حريق ٢٦ يناير وضرب موجة المد الثوري في معركة القنال على يد الاستعمار والملك ، هذا الانهيار انما ينعكس في نظر حمزة على الطبيعة والناس في وقت واحد . انه لا يستطيع أن يستشعر جمال الصبح دون أن يرتبط البرد في تفكيره بضرورة التيقظ والانتباه والمقاومة ، ولا يستطيع أن يستشعر روعة أشراق الشمس بينما هو يعلم كم من الامال العظيمة قد تحطمت في صدور هؤلاء الناس المحزونين المصطبغة وجوههم بالصفرة ، صفرة الشمس التي تولد ــ في نظر حمزة ــ ميتة او حاملة لون الموت وجرثومته . انهم قد يزدحمون نفس الازدحام ويسرعون الى عملهم نفس الاسراع ، ولكنه زحام صامت لا ينم عن حياة وأن نم عن كثرة مبعثرة مترهلة مشلولة ، وهي سرعة مفزعة متوترة خائفة ، سرعة « أشياء » تصطدم ببعضها فتتحرك بدافع من الغريزة الهوجاء وليس بدافع من الوعي الهادف . لقد تحولوا في نظر حمزة الى شخوص مصطنعة ، تحمل لون الشمس الصفراء الميتة . انه يعكس احساسه البشري ،

وضعه الانساني الخاص والذاتي على موضوعية الطبيعة وموضوعية الآخرين ، لكي تستحيل في داخله الى عنصر من عناصر وجوده ومسببات فعله ، متفاعلة معه في مشكلاته القائمة وفي الحل الذي قد يصل اليه .

هكذا كان حمزة — الذي أبدعه يوسف أدريس — تعبيرا حقيقيا عن ذلك الجيل من الثوار الذين عرفوا ان الثورة هي علم تغيير المجتمع ، وان الحرية ليست مجرد الاستقلال السياسي وطرد المستعمر ، وان الحرية نفسها — بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية — لا يمكن الحصول عليها في صورتها النفسية الاصيلة ، ما لم يشق الشعب اليها طريقه بالعنف المنظم في مواجهة عنف المحتل المنظم كذلك . ولكن حمزة أيضا لم يكن مجرد تعبير عن الجوانب الطيبة من ذلك الجيل . لقد التزم يوسف ادريس الحقيقة بكاملها دون أن يحاول اكتشافها ، فحمل حمزة نفس ما عاناه جيله من جوانب القصور ، دون أن تكون ثمة محاولة من جانب المؤلف لتقييم ذلك القصور أو اتخاذ موقف منه ، فجاء قصور حمزة تقريرا للواقع وليس اعادة للكشف عن معناه . لقد وعى حمزة — كما وعى جيله — القوانين العلمية لتغير المجتمع البشري وعيا عميقا ، ولكن حمزة وجيله لم يكونوا علميين الى درجة كافية بحيث تصبح هذه القوانين — كما ينبغي أن تكون — أداة في يد الثوار وليست موجهة لهم . لم يعرف حمزة كيف يمزج هذه القوانين بخبرة شعبه وحكمته وتراثه النضالي ، وكيف يصوغها بمصطلحات اللغة التي خلقها الشعب لنفسه من خلال حياته ومعاركه نفسها ، بحيث تتخذ هذه القوانين صفة البدهية التي تمليها حركة الواقع ، لا أن تتحول الى مجرد « مدرسة » من مدارس الفكر السياسي والاجتماعي .

ما هو حكمنا على حمزة اذن ؟ هذا العاشق والمقاتل الثوري ؟ مغامر هو كما يراه صديقه الثري السمين بدير ، أم بطل كما يراه اسماعيل أبو دومة وفوزية ؟

انه بوعيه العلمي بالثورة وبايمانه بقدرة الناس على التحكم في مصائرهم وتغيير شكل وجودهم الاجتماعي ، ورغبته الاصيلة في تحقيق تلاحمه العضوي بالناس وبمصالحهم الانسانية البسيطة ، أي ببساطته بقدرته على تجاوز فرديته وتحويل سخطه الشخصي الى طاقة واعية مفكرة يضعها في خدمة قومه ، لا يمكن أن يكون مغامرا . انه لا يسعى الى اثبات قدرته أو تفوقه ، ولا يسعى الى الحصول على لذة الاكتشاف أو مواجهة الخطر ، لا يدور في سلوكه أو تفكيره حول محور ذاتي مغلق المدار . انه لا ينتهي أبدا الى حيث ابتدأ ، طا كان قادرا على الاخذ بمثل قدرته أو تفوقه ، ولا يسعى الى الحصول على لذة الاكتشاف أو مواجهة الخطر ، لا يدور في سلوكه أو تفكيره حول محور ذاتي مغلق المدار . انه لا ينتهي أبدا الى حيث ابتدأ ، طالما كان قادرا على الاخذ بمثل قدرته على العطاء ، وطالما كان قادرا على أن يتعلم بمثل رغبته في أن يعلم الآخرين ، وطالما كان قادرا على الحب في صدق يماثل صدق احساسه بالخوف أو بالندم .

ولكنه أيضا لا يمكن أن يكون بطلا . فانه وقد عجز عن النفاذ الى عقل الناس ووجدانهم ، طالما ظل يعتقد ان عليه أن يخاطبهم بالفكر الصحيح فحسب ، لا من خلال صياغة هذا الفكر بلغة الناس أنفسهم ، وطالما اقتصر دوره على أن يكون مجرد « انعكاس لقمة الحركة الاجتماعية » وليس « تجسيدا » لرأس رمحها المفكر والمقاتل ، طالما ظل تعبيرا ضروريا عن تطور المجتمع وعجز عن أن يكون قوة فاعلة في هذا التطور حينما انفصل بلغته عن لغة الناس ، وحينما لم يتجه الى حيث ينبغي أن يكون ، حيث يتجمع الناس المستعدون للقتال والثورة ، الذين لا يوجدون في الشقق الفاخرة حيث كان مهربه الاول ، ولا في الجبانة حيث كان مهربه الاخير ، أقول ان حمزة بهذا الشكل لا يستطيع أن يكون بطلا . ليس البطل هو طفيلي المناضل كما يقول سارتر ، وانما هو التجسيد الفكري في فرد أو في مجموعة أفراد لحركة اجتماعية كاملة ، وهو القوة الفكرية الفاعلة في ذروة هذه الحركة ، وهو أكثر المناضلين قدرة على الارتباط بمصالح الناس وتجمعاتهم ولغتهم . وبهذه المعاني لم يستطع حمزة أن يكون بطلا . لقد سقطت نظارته عفوا فتوقف عقله المدرب الواعي عن العمل وقادته قدماه وغريزته الى الزحام — الى حيث يوجد من يقاتل من أجلهم ومن هم على استعداد للقتال الى جانبه . وحينما انتبه الى سقوط النظارة ، استرد عقله الواعي كفاءته على العمل ، فكان أن عاد الى الجبانة ، حيث ينتظره زملاؤه الثلاثة وحبيبته . ويخيل الي انه كان ينوي أن يستمر في « الكفاح » بنفس الطريقة معزولا مع جماعته الصغيرة ، بعيدا عن زحام الناس . ومع ذلك فهو ما يزال يتعلم وما يزال قابلا لاكتساب خبرات جديدة ، فطالما كان هدفه هو الثورة وليس المغامرة ، وطالما كان ايمانه النظري ان « الشعب » هو من يجب أن يقوم بالثورة وليس مجموعة معزولة من « المختارين » ، وطالما كان يسعى أن يسمع الشعب صوته وان ينضم اليه بجسده وليس بمجرد أفكاره أو نياته الطيبة ، فانه سيظل في نظرنا مناضلا فحسب .

لقد ابدع يوسف ادريس « حمزة » ليكون تجسيدا لثوار جيل ما بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فكان كذلك بالفعل دون أن يحمل أثرا من طموح هؤلاء الثوار الى تجاوز حقيقتهم وما كان بامكانهم فقط أن يكونوه . لم يكن مغامرا ، وعجز عن ان يكون بطلا ، واكتفى لنفسه بشرف النضال ، وكان حتى ينتصر نضاله على استعداد لان يموت ، فما كان يتصور ان بقاءه على قيد الحياة شرط لهذا الانتصار ، وان كان على استعداد لان يتقبل كل ما تمنحه له حياته ونضاله من سعادة وحب .

القاهرة — **سامي خشبة**

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق.ل
الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
اعطنا حبا	« «	٢٥٠
ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠